لجنة المغرب للتأليف والترجمة والنشر

(دفاتر «شواطئ البحر الأبيض المتوسط»)

3

أصالة الجاحظ

تأليف

شارل بيلا

أستاذ الآداب العربية بالسربون

نشر دار الكتاب
الدار البيضاء - المغرب

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

1962-1961

سنة الانطلاق

ان الثقافه ، لكثرة تشعب ميادينها ، صعبة القياد ، شديدة المراس ، فلا بد من ثقاف للثقافة ، لا بد من « دفاتر » تضم افكار وتحليلات محاضري نادينا ، كما تضم شواطئ بحرنا المتوسط ، غمارات امواجه الخالدة المتجددة .

ان التيار الخلاق لا يقهره الا الحق ، والحقيقة لا تكره ابدا على ان تستغيث بالقوة ، ان لم تكن قوة الفكر او قوة العدل ، وقوة الترقية الانسانية . فكثيرا ما تحول القوة الغاشمة مزايا الفكر الى مساويء الباطل .

ان الثقافة مشكاة فيها مصباح الفكر الوضاء ، ولكن نوره يتضاءل بمجرد ما يكف عن عكس اشعة الحق .

الحق منبع كل نور .

لطالما اعمت عن الحق كثرة استعمال القوة ، فمن اللائق الا يكره اي شخص بقوة ، ولو على الخير . لا بد من استعمال الفكر للاقناع بضرورة القيام بالخير : الثقافة هي باب كل خير .

يروج بعضهم ان الثقافة منبع قلق وحسرة وشعور بالعبث وبمختلف الازمات النفسانية ، ولكنهم اخطؤوا الصواب فانزلق عنهم التوفيق : ان الثقافة منبع الوعي الشامل للطبيعة ولحياتنا النفسانية والمجتمعية (كانت هذه الحياة قلقة ام غير قلقة ، انتصر فيها العبث او لم ينتصر ...) . لن تكون الثقافة تغذية للفراغ والهواجس ، وتفكيرا عابثا في العبث ، الا اذا اخرجتنا من التاريخ لتحيلنا على هامشه ، لان الثقافة قيم وتيارات صوفية .

هناك فنون تدرسها الثقافة ، ولكنها غيرها فن التثقف ، وفن التثقيف .

فما ابشع ضحك الجهل حين يسخر من « مثقف » ينسلخ عن القيم ، ويتنكر للموضوعية ، ويخرس لسانه وقلمه عن ابراز الواقع كما هو !

ما اتفه « ثقافة » تسخر للفائدة الخاصة الصرف !

ان ألسنة الكائنات والعالم ، تعتمد على القيم والحرية وضمان الشغل والمساواة للمجتمع .

هذه هي الافكار التي تنبني عليها ذاتية الكائن البشري ووحدته كانسان ، وهي بالذات مقومات كل ثقافة حق . من هنا كانت الثقافة عنصر استكمال كرامة الانسان .

الثقافة مغامرة واعية ، عبر تاريخ الانسانية ، تتجاوز الفروق العرقية واللغوية والزمانية لتشيد لاجيال كل الاجناس ، عالما افضل ، عالم تعاون واخاء .

الانسان مفتقر بالطبع الى اشباع حاجتين ملحتين : تغذية الجسم من جهة ، وتغذية الفكر والروح والميول النفسانية والذوقية ، من جهة اخرى . فمن لا يحسن مع نفسه ومع الاشياء (الكائنات والجمادات) لا يحيا حياة انسانية .

فالموقف الرشيد من الثقافة ، ان نتجاوز ثنائية الفكر والوجود فنحيا افكارنا متجسدة في نشاطنا وان نركز كل فعل على التفكير.

الثقافة تعطي وسائل التعبير والتقويم لكل اصناف نشاطنا ، فتصبح للخير كمية من الوضوح تجعله ضروريا . للحق بابان ، باب الثقافة التي ترمي الى الاقتناع والاقناع ، وباب القوة (كقوة ــ في ــ ذاتها ــ لـ ــ ذاتها) . فكلما انفتح الباب الاخير ، نفخت ريح تذهب بصولة الحق ، وبطهارة الخير ، وبنضارة الذوق القويم ، فلا يبقى الا بطش القوة لتفرض ذاتها لذاتها ، فتنقلب الوسيلة غاية .

هل الباطل ، وهل الشر ، وهل القبح ، الا القوة التي ترغمنا على الخضوع لها ، بصفتها قوة ، وترفض الحجة التي تقنع بانها

دليل الصواب ، كما ترفض الفضيلة التي هي معيار الاخلاق ، وتفكك عناصر الانسجام ، الذي هو مقياس الجمال ؟

هذه « الدفاتر » ، مهما اختلفت المواضيع التي تتناولها ، ترمي كلها الى هدف واحد : الى الحوار عن طريق التجاوب الثقافي ، لتعين القاريء على الوصول الى الحق ، والخير ، والجلل باستقامة الفكر ، وصحة الارادة ، ويقظة الوعي ، وتربية الذوق ، والايمان بالتعاون الشامل بين جميع الناس ، لفائدة الانسان .

محمد عزيز الحبابي

ترجمة الأستاذ بيلا

ولد الاستاذ بيلا سنة 1914 . وقد تلقى دروسه بثانوية ليوطي بالدار البيضاء . تم عين استاذا بثانوية مراكش سنة 1934 ، بعد اتمام دراسته العليا . قضى بعد هذه المدة سنين طويلة بالجيش ، وسمي بعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها ، أستاذا بثانوية لويس لوكران (Louis Le Grand) بباريس ثم بالمدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية ، وأخيرا بالسربون سنة 1956 .

وقد انكب الاستاذ بيلا في دراساته وابحاثه خصوصا ، على الادب العربي في القرون الوسطى ، وكان عنوان أطروحته **البيئة البصرية وتكوين الجاحظ** . وقد نقل الى الفرنسية **كتاب البخلاء** . ونشر مقالات عديدة كلها عن أدب الجاحظ (نشر بعض النصوص ونقلها الى الفرنسية) .

وقام بنشر **اليومية القرطبية** نشرة جديدة مع ترجمتها.

ويهتم الاستاذ بيلا ايضا بالبحث في اللغة العربية المعاصرة ، وله تآليفه في هذا الموضوع : **العربية الحية ، والتمهيد الى اللغة العربية المعاصرة . . .**

وقد اعتنى الاستاذ بيلا ، بصفته مستشرقا عاش في المغرب بالابحاث اللغوية المتعلقة باللهجات البربرية ، فنشر في هذا الموضوع بعض المقالات ، كما نشر **نصوصا من اللهجة البربرية لقبيلة آيت سغروشن القاطنة بوادي ملوية .**

أصالة الجاحظ

لا يمكنني طبعا أن الم بكل ما يخص الجاحظ ، وان اتحدث في نواحي آثاره المتباينة المتفاوتة ، في حدود محاضرة تدوم ساعة من الزمان ؛ ولذلك سأقتصر على الظواهر التي تنبيء عن البواطن وتلقي شيئا من الضوء على أهم المشاكل التي يجب على الناقد الادبي أن يحاول حلها .

كان الجاحظ ـ وهذا أمر مستفيض مشهور ـ بصري الاصل والمنشاء ، ولا يخفى على احد ما للبصرة من خصائص ومميزات تميزها عن الامصار الاخرى وخاصة عن شقيقتها الكوفة . فشكلته البصرة وصورته وكيفته الى حد انه يعد اكبر ممثل وأصدق مرآة لشخصية المصر العراقي العظيم في القرن الثالث للهجرة ، مع أنه لم يبق طول حياته في مسقط رأسه ، ورحل الى بغداد حيث الف عددا مدهشا من الكتب وحرر كمية لا تقدر من الرسائل ؛ فلسوء الحظ قد اكل الدهر على هذا الانتاج الادبي الفريد وشرب .

هذه صورة وجيزة مصغرة من حياة الجاحظ ، وفي الحقيقه لا يمكننا ولن يمكننا ابدا ان نستخرج مما لدينا من النوادر والروايات والاخبار صورة واضحة مفصلة ترضينا تمام الارضاء ؛ فلا نعرف بالضبط السنة التي ولد فيها صاحبنا ولا نعرف أباه ولا ندرى كيف عاش في البصرة ومن حرضه على الدراسة والتعلم وفي اية سنة رحل الى بغداد وبما عاش اول امره في العاصمة العباسية ، فنكاد نجهل حياة الجاحظ حتى انه وجب علينا ان نلجأ الى افتراضات غارة وننظر في عدد هائل من الكتب لنتصور الجو الذي كان يتصرف فيه فنستدل بالحاضر على الغائب ؛ فلعل مثل هذا التقصي والتبحر يمكننا من تبرير الحكم الاجمالي الذي

تناقلته العرب منذ ألف سنة اذ اننا نرى النقاد يطنبون في مدح الجاحظ ويقولون انه معلم العقل والادب ، دون ان يسألوا انفسهم كيف علم العقل وكيف علم الادب ، وما هو العقل وما هو الادب وكيف تعلمهما منه من جاء بعده ؛ فاني أعتقد بل أوقن بانهم لم يفهموا معنى هذا الحكم السديد ولا تفهموا مداه البعيد ؛ وأقوى دليل على ذلك ان الاجيال المتتالية والطبقات المتتابعة لم تكترث بكتيب للجاحظ هو عندي اعظم آثاره اهمية واعجبها نفاسة ، الا وهو التربيع والتدوير الذي ظل شيئا منسيا الى ان نشره Van Vloten مستندا الى مخطوطة وحيدة ويجدر بي ان الاحظ هنا ان مخطوطات الجاحظ قليلة العدد ، فيدل ذلك على قلة الاهتمام والاكتراث بمؤلفاته في القرون الوسطى فطل التربيع والتدوير شيئا منسيا الى اواخر القرن الماضي ، ثم ظل لغزا من الالغاز الى ان بلغت مرادي منه بعد جهد طويل وكد لا يتوهمه القارىء .

فلعلكم تظنون اني قليل التواضع ، والحقيقة ضد ذلك ، فاني لما شرعت في دراسة الجاحظ منذ عشرين سنة ونيف ، فهمت انه لا يمكنني ان أبلغ غايتي ولا تفضى جهودي الى نتائج مرضية الا بالاعتماد على النصوص ، فلذلك نشرت — ولو نشرا موقتا غير نهائي — كل ما تيسر لي من المخطوطات الجاحظية وترجمت قسما لا بأس به من المؤلفات التي تساعدنا على ادراك شخصية الجاحظ ، ومع ذلك لا اشعر بانني قادر بعد على التكلم فيه بصفة كافية شافية .

فرغما عن الصعوبات التي قد ذكرتها سأحاول ان اعطيكم صورة جديدة لشخصية الجاحظ من خلال ما أعرفه من حياته ومؤلفاته .

فنشأ الجاحظ في البصرة في وسط مفعم بالادب والشعر والمضاربات العلمية والعقلية من قرآن وحديث وفقه ونحو وكلام وغير ذلك مما كون من بعد جزءا وافرا من الثقافة

ـ بل قل الحضارة ـ التي خلدت اسم العرب ؛ فتعلم صاحبنا اللغة العربية الفصيحة التي كانت في اواخر القرن الثاني الهجرى لا يتكلم بها ولا يحسنها الا البدو وبعض الاوساط الحضرية الممتازة ، لان اللهجات كانت قد نشأت في جميع الامصار والمدن الكبار ؛ فتكفي اسماء معلمي الجاحظ دلالة على قيمة ما لقن من المعارف التي أسميها المعارف العربية ، اذ انه أخذ عن الاصمعي وابي عبيدة وابي زيد الانصاري وغيرهم ممن كان يلازم المربد ، والمربد ساحة فسيحة تناخ فيها القوافل الواردة والصادرة في طريق الحجاز ، وكان اللغويون يذهبون الى المربد ويسألون البدو عن اللغة والشعر والاخبار والانساب القبلية وغير ذلك . ثم كان الجاحظ يحضر مجالس المسجديين، والمسجديون يجتمعون في المسجد الجامع ويتحدثون ويطرقون مختلف الابواب ما عدا باب العلوم الدينية على ما يظهر ، ثم يحضر ايضا مجالس البرجوازية المحلية حيث يدور الحديث على أمور لا تمت الى الدين بسبب ، ثم ينظر ايضا الى ما حوله بعين ساهرة كما ينظر رجل محب للاستطلاع والانتقاد . فسجل جميع ما رأى وسمع في حافظته القوية وادخره لمستقبل ايامه .

وهكذا تأدب الجاحظ في المربد والمسجد والمجالس الخصوصية ، وفي شوارع البصرة وفي فرضتها ، فاكتسب من العلوم والمعارف ومعاني الادب ما رغبه عن التخصص وزهده عن الاندماج في طبقة معينة من طبقات العلماء كالمحدثين والفقهاء والنحويين وغيرهم ممن كان منذ ذلك الوقت حدد مجال ابصاره واقتصر على ناحية ضيقة من العلم ، وان وجب علينا الاعتراف بان التخصص المحض كان نادرا في البصرة وان اهلها تميزوا بنزعتهم الى نوع من المشاركة في العلوم والمعارف ، ان استثنينا النحو ، ولعل الجاحظ فر من التخصص وتخلص منه لما راى النحويين يخوضون في هذا العلم الجاف ويتلفون انفسهم في مناقشات ومجادلات لا جدوى لها ولا منفعة .

ويبدو ان النحو كان في ذلك الزمان يكاد يبلغ اوجه وان باب الاجتهاد النحوي على وشك ان يغلق . ولحسن الحظ كان

باب الادب مفتوحا على مصراعيه وظله الى اواخر القرن الثالث فأوصده حينئذ ابن قتيبة على وجه اهل السنة ، وقد اخذت الشيعة المشعل من ايدي المعتزلة فحافظوا عليه طيلة القرن الرابع ، وهذا امر خارج عن مرادنا اليوم .

ولقد ذكرت المعتزلة وينبغي الا ننسى ان الجاحظ عاشرهم ايضا وجعل يذهب مذهبهم ، فتعلم استعمال العقل وكيفية تحكيمه في احوال الحياة قبل ان يعلمه غيره .

فحملته جميع هذه العوامل على التفكر والتأمل في المشاكل التي كان المسلمون المثقفون يواجهونها بدون حرج ولا ورع ، منها الائتلاف (أو التأليف) بين العقل والايمان فيما يخص الاعتقادات الدينية ، ومنها الاختلاف المتفاقم بين الفرق الاسلامية ، ومنها مطالبات الشعوبية ، ومنها مشكلة الامامة ومشروعية العباسيين أي مشكلة استحقاقهم الخلافة ، اذ كان اعداؤهم لا يزالون يطعنون فيهم وينكرون حقهم . وسنرى بعد قليل ان هذه المعضلة هي التي قررت مصير الجاحظ ووجهته الى ما اتجه اليه من النشاط الادبي .

ولكنني اريد ان الح على ان البصرة أثرت في ذهنه تأثيرا خارقا للعادة ، حتى اني احتجت بل اضطررت الى تاليف كتاب مطول في مظاهر الحياة البصرية عند ما شرعت في دراسة الجاحظ ، واني الح على ذلك لان ناقد الادب ومؤرخه قلما يضطر الى الرجوع الى اكثر من قرن قبل زمان المؤلف الذي يبحث عنه ويحلل آثاره لادراك ماهية هذه المنتجات الفكرية وشخصية صاحبها . فانما العرب لم يكونوا يتصورون الزمان كما نتصوره نحن ابناء القرن العشرين : فان الماضي كان حيا وكأنه حاضر في نفسية البصريين ، والجاحظ لا يمثل احوال مصره المعاصرة فحسب بل يمثل مزاجا من الماضي والحاضر لا يحل ولا تنفصل بعض اجزائه عن بعض ، او بعبارة اخرى فهو اصفى منتوجات البصرة .

وزيادة على ما عددته من خصائص البصرة فكانت لاسباب لم اتبينها بعد تميل الى الواقعية والمعقلية اي الى استعمال

العقل والمنطق في جميع المضاربات التي ترتكز على علم متين ومعرفة صحيحة ؛ فكان من المنتظر الطبيعي ان يطبق الجاحظ في معظم مؤلفاته المبادىء التي امتاز بها مسقط راسه . فلما اخذ يؤلف الكتب بالبصرة نفسها وذلك ان أول دليل على تاليفه كتبا يرجع الى حوالي سنة 200 اذ يقول في البيان والتبيين : « ولما قرأ المأمون كتبي في الامامة فوجدها على ما امر به وصرت اليه وقد كان امر اليزيدي [واليزيدي هذا توفي سنة 202] بالنظر فيها ليخبره عنها قال لي : قد كان بعض من يرتضى عقله ويصدق خبره خبرنا عن هذه الكتب باحكام الصنعة وكثرة الفائدة ، فقلنا له : قد تربي الصفة على العيان ، فلما رايتها رايت العيان قد أربي على الصفة » ؛ ونفهم من هذا النص ان الجاحظ قد امره المامون او اليزيدي بتاليف تلك الكتب ونفترض انه رحل حينذاك الى بغداد واستوطنها حينا ؛ فعلى كل حال كان صاحبنا بمثابة مبتديء في التاليف ، كما انه لم يزل تلميذا فيما يخص العلوم الدينية وفي مقدمتها علم الكلام : فأفادته العاصمة العراقية فوائد جمة ، منها انه اخذ عن ثمامة بن أشرس الذي كان قريبا من السلطان واتصل خاصه بالنظام فاقام مذهبه الشخصي على قواعد اصح مما كانت عليه وأمتن ، وان نحن لا نعرف المذهب الجاحظي حق المعرفة لضياع اكثر ما الفه في الكلام ، ثم وسع تجاربه وثقافته . ويروى انه كان يكتري حوانيت الوراقين بالليل لمطالعة الكتب ، وأظن أنه قرأ ببغداد كتب الفلسفة اليونانية المنقولة الى العربية ايام المامون خاصه ، كما انه اتيح له ان يقرأ هناك كتبا فارسية وهندية وغير ذلك .

فهذه المعارف التي اكتسبها في بغداد لم تنسه أدبه البصري ولكن الحالة السياسية دعته الى النظر في مسائل جديدة لعله لم ينتبه الى اكثرها قبل قدومه الى العاصمة .

فكان الخلفاء العباسيون في اوائل القرن الثالث يشعرون بان المسلمين غير مجمعين على قبول دولتهم وفهم المأمون

ان عددا لا يستهان به من رعاياه يكرهونه لانه قد قاتل اخاه الامين ونازعه الخلافة وتقرب الى الشيعة ، فاهل السنة يخشون انصار علي وخاصة الغلاة منهم فيضعون مثلهم الاعلى في الدولة الاموية المفقودة ويمدحون معاوية بعد وفاته بقرن ونصف ويتشيعون به كما يتشيع مخالفوهم بعلي؛ فاعتزم المامون على اتخاذ تدابير شديدة على انصار الامويين ثم فرض على الامة القول بتفضيل علي على الصحابة ثم اخذ يذهب مذهب المعتزلة تحت تاثير ثمامة ابن أشرس واكره الامة الاسلامية على القول بحدوث القرآن . فلم يبق للمامون الا عدد ضئيل من الانصار ما عدا المعتزلة الذين اعانوا بني العباس على الامساك بعنان الحكم ثم لم يخذلوهم فنرى اذا ان العالم الاسلامي قد انقسم في المشرق الى ثلاثة اقسام : الخاصة المنورة تؤيد الدولة ، وشيعة على ترجو انقلابا تاما لفائدة اهل البيت ، والعامة تحيي معاوية وتعارض به بني العباس .

فلم يزل المأمون قادرا على مقاومة اعدائه بفضل المعتزلة الذين يقدمهم على غيرهم ، ولكن من اتى بعده من الخلفاء ليس لهم من المزايا والفضائل ما يمكنهم من اقناع من يخالفهم ومداراتهم ، فلجؤوا الى القوة المسلحة ، غير ان نفوذ الاجناد وخاصة الاتراك لم يلبث ان يصير خطرا شديدا على الدولة ، واوضح دليل على ذلك أن المعتصم اضطر الى تأسيس عاصمة جديدة – سر من رآي – ليتخلص من عداوة البغداديين ، ثم حاول المتوكل ان ينقل مركز الخلافة الى دمشق ولكن الاتراك اكرهوه على الرجوع الى بغداد . فالتفت عندئذ الى العامة وعاد الى السنة فألغى القول بحدوث القرآن واتخذ تدابير قاسية على اهل الذمة .

فتنعكس جميع هذه الظروف في مؤلفات الجاحظ وكان من الطبيعي ان تنعكس فيها لانه شاهدها ، ولكن السؤال الذي يخطر بالبال الآن هو الاتي : اكان في بغداد مجرد شاهد ام قام هو نفسه بدور من الادوار ؟

فانا نعلم انه عين كاتبا في ديوان الرسائل غير انه فارق منصبه بعد ثلاثة ايام ، ولا استبعد هذا الخبر لانه يلائم ما نعرفه من نفسية الجاحظ الذي لا يستطيع ان يكون كاتبا من كتاب الدواوين لشغفه بالحرية وولوعه بالاستقلال ، ولعلكم تعلمون ان ابن شهيد الاندلسي ذمه وزعم انه لم يبلغ مرتبة عالية ومكانة رفيعة لدمامته وغيرها من عيوبه ، فمثل هذا الحكم باطل لان ابن شهيد لم يكشف عن سر الجاحظ .

وان لم يكن كاتبا فماذا كان يعيش به في بغداد ؟ فلا نجد في مصادرنا ما يشفي غليلنا ، الا ان صاحبنا نفسه يعترف بانه كان يستمد معاشه – بعد اتصاله بابن الزيات – من مؤلفاته وهذا امر لا يخلو من الاهمية في تاريخ الآداب العربية اذ نعلم ان الصيلات والجوائز كانت تتدفق على الشعراء عند مدحهم الملوك والكبراء ، لا على اصحاب النثر ، فيدل ذلك اذا على ان النثر كان حينذاك على وشك ان يقوم مقام الشعر في بعض الاحوال : فالشاعر لا يزال يمدح ويهجو ولا تزال قصائده تروى وتنشد وتنفذ الى افئدة الناس – ان صح هذا التعبير – ؛ واما الناثر فيؤلف الكتب ويحرر الرسائل افهاما لموافقي السلطان وافحاما لمخالفيه ، فيحملها الركبان – كما يقول الجاحظ – وتصير في الآفاق فتنفذ الى الاذهان . فذكر صاحبنا انه تلقى جوائز سنية من ابن الزيات وغيره ولكن الكتب التي سببها هي كتب ادبية كالحيوان والبيان ، فيغلب على الظن ان تلك الاموال الوافرة لم تكن جوائز بل أجرة للخدم التي اداها الجاحظ للسلطان ولأياديه عند الكبراء اذ كان في بغداد داعية لبني العباس ووزرائهم ومستشارا لهم ما دام الاعتزال مذهب البلاط ، وهكذا نفهم السبب الذي به اتصل بمحمد بن عبد الملك الزيات وبقاضي القضاة احمد بن ابي دؤاد وابنه محمد واخيرا بالفتح بن خاقان الذي جرد اسمه في الديوان واعطاه مرتبا رسميا .

فسنرى بعد قليل كيف خدم السلطان وما هي المؤلفات التي تحمل طابع الدعاية السياسية ، ولكن هذه المؤلفات لا تكون

الا جزءا من انتاجه لانه ان وضع نبوغه الادبي تحت تصرف السياسة والكلام ، فانه قبل كل شيء اديب محضا ، فوقف جل مؤلفاته على مواضيع لا تمت الى السياسة والكلام بسبب .

فتبلغ جملة مؤلفاته عددا هائلا ولقد سرد ابن النديم في الفهرست وياقوت في معجم الادباء والكتبي في عيون التواريخ اكثر من مائتي كتاب او رسالة ، ولسوء الحظ لم يبق منها الا قسم يجعلنا نتأسف على ضياع الباقي . فقد حافظ الدهر على نحو ثلاثين كتابا أو رسالة بحذافيرها ، ونحو خمسين اخرى لم يصل الينا منها الا قطع مختلفة المقدار ، واما البقية فاني ارجو العثور عليها في مكتبات استنبول وغيرها ان شاء الله . واعجب العجب ان المنحول من الكتب كالتاج وكتاب الدلائل والاعتبار وكتاب المحاسن والاضداد وغيرها مما نسب الى الجاحظ محفوظ غير ضائع وقد ضاع الصحيح اكثره .

فلقد حاول بروكلمان ان يرتب آثار الجاحظ على حسب المواضيع الحقيقية او الموهومة بناء على العناوين المذكورة في معجم الادباء ، وهكذا يجوز للقارىء ان يمس ان صح هذا التعبير سعة ثقافة الجاحظ واختلاف اتجاهاته ؛ فلست اريد ان اتبع بروكلمان بل أرى ان المؤلفات التي نحن بصدد الالمام بها تنقسم الى ثلاثة اقسام رئيسية : فالقسم الاول يتضمن الكتب السياسية الدينية ، والقسم الثاني المؤلفات التي فيها مزاج من الادب والعلم ، والقسم الثالث الرسائل الادبية المنسوجة على منوال القدماء ، ويجب علي ان اعترف بان التداخلات بين الاقسام الثلاثة كثيرة جدا .

اما الصنف الاول من مؤلفات الجاحظ في الكلام فانه قليل الوجود لان الايام قد مرت عليه واعانها على اتلافه اهل السنة بعد تغلبهم على المعتزلة ، ومع ذلك فقد وصل الينا قطع مبتورة قصيرة من عدة رسائل في فضيلة الكلام وفي المعتزلة وغيرهما ، لا اتجاسر على التحدث فيها لقلتها وعدم اصالتها بالنسبة الى غيرها من آثار الجاحظ . وأما السياسة فاضخم

كتاب سياسي وصل الينا هو كتاب العثمانية الذي يحتج فيه صاحبه للخلفاء الراشدين فيدحض بصورة غير مباشرة مزاعم الشيعة وذلك كله تاييدا للعباسيين ، فانه لا محالة من انصار بني العباس ولكنه يستعمل وسائل متباينة وطرائق متفاوتة للبلوغ الى غايته ، فينصرهم تارة على الشيعة كما يتبين من كتاب العثمانية ، وتارة على الامويين وشيعة معاوية ، غير ان القارىء قد يتوهم انه من شيعة علي حين يحتج له على معاوية كما هي الحال في كتاب عنوانه : تصويب علي في تحكيم الحكمين .

فالجاحظ على ما قلت سابقا داعية ومستشار ، وهناك رسالة مهمة عنوانها رسالة في النابتة – او في بني امية – وهي عبارة عن تقرير مفصل وجهه الجاحظ الى محمد بن احمد بن ابي دؤاد ، فيحلل فيها الحالة السياسية ويبين اسباب اختلاف الامة ويحذر السلطان من النابتة اي انصار بني امية بعد انصرام دولتهم بمئة سنة ، فهولاء الحشوية يستخدمون اسم معاوية لغرضهم السياسي ويحتجون على العباسيين بحجج استخرجوها واستنبطوها مستندين الى طريقة كلامية محضا وتوجد تلك الحجج ورد الجاحظ عليها في كتاب تصويب علي المذكور آنفا ، فرسالة النابتة ورسائل اخرى مثل التي نشرتها في نفي التشبيه لها صبغة سياسية دينية لا ترد ، ويظهر الجاحظ من خلالها كانه كاتب رسمي او شبه رسمي يشير السلطان الى واجبه ويمثل أحيانا اوامر الوزراء والكبراء فيحرر رسائل تشبه المقالات الافتتاحية التي تنشرها اليوم بعض الصحف تأييدا لسياسة الحكومة ، وفي هذا الصدد اخص بالذكر رسالته في مناقب الاتراك التي كتبت بمناسبة انشاء الجند التركي زمان المعتصم ، وكتاب الرد على النصارى : فالعلاقة التي تصل بين هذا الكتاب والتدابير التي اتخذها المتوكل ليحط من شأن اهل الذمة واضحة بينة .

فلو كان من الممكن ترتيب مؤلفات الجاحظ ترتيبا زمنيا ولو احتفظت آثاره جمعاء لتسنى لنا ان نبين الصلات والاسباب

الواصلة بين الاحوال السياسية وبعض رسائل صاحبنا وللاحظنا انه أيد السلطان ما دام الاعتزال مذهبا رسميا ، ثم انسحب عن الحياة السياسية فاقتصر حينذاك على الادب ، مع ان انتاجه الادبي لا يخلو من ان يتصل بالسياسة العامة .

فاما الصنف الثاني من مؤلفات الجاحظ فيرمي الى تكوين ثقافة عربية شخصية منشود احداثها بواسطة انتقاء معقول فطن متبصر بين عناصر الثقافة العامة الصادرة من مصادر شتى المجموعة في القرن الثاني واوائل القرن الثالث ، فغرض الجاحظ في مثل هذه الكتب جمع ما لا يجوز للشريف جهله وما لا يسوغ للنبيل اهماله من المعارف العامة ، ويرتكز ادبه على ثلاث قواعد : اولا التراث العربي ، ثم الحكمة الفارسية الهندية ، فيقدم بطبيعة الحال المعارف العربية على العنصرين الاخرين ، ولا يتخذ نصيبا من الثقافة الفارسية الا لاقامة الاعتدال والتوازن بين الادبين الدخيلين ، ويحدد تأثير الفرس في تكوين الثقافة لمعرفته بالخطر الذي يهدد الامة الاسلامية من هذه الناحية . فيرمي الجاحظ الى تثقيف القارىء وتعلمه ولكنه يكره ان يحمله اكثر مما يطيق احتماله ، فيمزج الهزل بالجد لايساغ الكل ، وهذه ميزة جاحظية مهمة . وفي هذا القسم من المؤلفات يكثر من الروايات والاخبار والاسجاع والاشعار فيختفي وراء من يروي عنه ولا يبدي شخصيته الا من خلال انتخاب المادة وتقديمها وشرحها والتعليق عليها . ومن بين الكتب التي تنتمي الى هذا الصنف الثاني ، فاكبرها حجما واعظمها أهمية كتاب الحيوان الذي يرتكز على الحيوانات غير ان المؤلف لا يتورع من الخوض في الحديث عن مواضيع اخرى تتعلق بالكلام والفلسفة وعلم الاجتماع وما وراء الطبيعة والادب الشعبي والنقد الادبي وغير ذلك من المشاكل التي كانت في ذلك الوقت تشغل قلوب الناس وعقولهم ، فنجد مثلا في هذه الموسوعة آراء عجيبة غريبة لا يكاد ينكرها معاصرونا في تطور الانواع وتاثير الهواء والتربة في خلق الانسان والحيوان وخلقهما ونفسية الحيوان وغير ذلك مما غاب عن أرسطو ولم ينتبه اليه علماء الغرب الا

في العصور الحديثة . وينبغي ان الح على ان دائرة المعارف هذه لا نجد سبيلا الى اعتبارها دراسة مطولة في علم الحيوان وان كان من اليسير القريب ان نستخرج منها ما يشبه في بعض الاوجه والنواحي بمحتويات كتاب Buffon في الحيوان ؛ فان الجاحظ رغما عن قيامه بتجارب شبيهة بالعلمية واختبارات عجيبة ، ورغما عن تحقيقه الروايات التي بلغته ، لا يمكن ان يعد عالما متخصصا بالحيوان ، فلا يتجاوز في هذا المعنى صفة الاديب ، بل صفة الرائد في الادب وينبغي الا ننسى ان ابعد غاياته من هذا الكتاب احصاء ما في الطبيعة من الدلائل على الله وعلى اتقان صنعه وعلى عجيب تدبيره وعلى لطيف حكمته . فلم يتجاوز ايضا صفة الاديب في كتابه في الامصار وعجائب البلدان اذ تدل القطع المحفوظة من هذا الكتاب الممتع أنه اول من اهتم بما يسمى الجغرافية الانسانية .

فالجاحظ اديب ولكنه أريب ، ولما كان غير عربي الاصل تبصر بالاخطار المعلقة على رؤوس المسلمين عامه والعرب خاصة من قبل العجم ، فلذلك رايناه حذرا متحفظا ازاء الحضارة الفارسية فيما استهدف تكوينه من ثقافة عربية اسلامية ، واذا به الان يكافح العجم الذين اصبحوا يقودون الامة العربية ويسوسونها اذ انهم يشغلون اعلى المناصب ويبلغون ارفع المراتب ، فاضحوا خطرا خطيرا لانهم يدينون سرا بديانتهم المجوسية وان كانوا يتظاهرون بالاسلام ، ويزدرون العرب ليقينهم بتفوق حضارتهم وثقافتهم الفارسية وان كانوا يحسنون العربية . والحاصل انهم عبارة عن طابور خامس ضمن الامة الاسلامية .

فتبصر الجاحظ بكل ذلك وجعل يلتمس ما للعرب وما على الفرس في ميدان الثقافة ، ويبحث عما يبرهن على تفوق العرب وتقصير العجم ؛ فلقد كان ادخل في كتاب الحيوان اخبارا وروايات تدل على ان العرب قد تفكروا في وجوه من الاسرار الطبيعية وحصلوا بعون الله تعالى على حلول مرضية واجوبة مفحمة لا يمكن الفرس ان يدلوا بامثالها .

أبو سلوم المعتزلي

غير ان هذه الحجة ضعيفة بالنسبة الى ما تفتخر به العرب من نبوغ وعبقرية في مضمار الشعر والخطابة مما ليس للعجم نظيره رغما عن ماضيهم الحميد وتاريخهم المجيد ؛ فأسرع الجاحظ الى تاليف البيان والتبيين الذي هو أيضا مجموع ولكن مجموعا لا يرمي الى تثقيف العرب فحسب بل الى اظهار قريحتهم الخطابية وعبقريتهم الشعرية ، فانتخب الخطب والاشعار والروايات والاخبار التي توافق غرضه وتدل على ما يقصد ابداءه من طبع العرب على الشعر والخطابة ، ولكنه عند انتقائه الاشعار واصطفائه الخطب يحتاج الى تحكيم مصداق ــ عفويا كان او متكلفا ــ فيضع بصورة عرضية غير جوهرية اساس النقد الادبي ، وان لم يكن النقد قصده عند الشروع في تاليف البيان ؛ ولله در ابي هلال العسكري حيث يقول : « فلما رايت تخليط هولاء الاعلام فيما راموه من اختبار الكلام ، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل ، ومكانه من الشرف والنبل ، ووجدت الحاجة اليه ماسة والكتب المصنفة فيه قليلة وكان اكبرها وأشهرها البيان والتبيين لابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ وهو لعمري كثير الفوائد جم المنافع لما اشتمل عليه من الفصول الشريفه والفقر اللطيفة والخطب الرائعة والاخبار البارعة وما حواه من اسماء الخطباء والبلغاء وغير ذلك من فنونه المختارة ونعوته المستحسنة ، الا ان الابانة عن حدود البلاغة واقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ومنتشرة في أثنائه ، فهي ضالة بين الامثلة لا توجد الا بالتامل الطويل والتصفح الكثير ، فرأيت ان اعمل كتابي هذا الخ » وهو كتاب الصناعتين ؛ لقد اصاب ابو هلال ولعله لم يصب غاية الجاحظ القصوى وهي كما قلت آنفا رفع مكانة العرب واخمال ذكر العجم .

ونجد نفس الغرض في كتاب آخر مشهور عند جميع طبقات الادباء من العرب والمستعربين ، الا وهو كتاب البخلاء . فلقد لاحظ الجاحظ ان العرب مطبوعون على الشعر

والخطابة فالف كتاب البيان/؛ ثم راى انهم مجبولون على الجود والسخاء فالف كتاب البخلاء هذا ضد العجم الذين شاعت شهرتهم بالاقتصاد والبخل ، لان اكثر الاشخاص الواردة اسماؤهم في كتاب البخلاء موال واهل خراسان ، الا ان الجاحظ لا يخلو من ان يكون ظالما لانه لم يدرك ان رفاهية البصرة مترتبة على البرجوازية المحلية العجمية الاصل التي كانت تتكل على المال المدخر بيد ان الارسطوقراطية العربية تتكل على الله .

فلامرما اختار الجاحظ موضوع البخل زيادة على علايته السياسية ، وذلك انه يتميز عن كثير من أترابه بحبه للاستطلاع وحدة بصره وادراكه الاحوال المضحكة وروحه الانتقادية ؛ فمكنته جميع هذه المزايا من وصف الاخلاق والاجتماع احسن وصف . فنراه في كتاب البخلاء يحلل البخل تحليلا لا يكاد يوجد قبله ولا بعده في تاريخ الآداب العربية ، ويعطيناسلسلة مظاهر لا تخلو من روح تمثيلية حتى انه من الميسور ان تتخذ صفحة او صفحات من هذا الكتاب وتخرج اخراجا بسيطا فتصبح روايات مسرحية قصيرة . ولقد بلغني ان بعض التونسين جربوا ذلك فانجحوا نجاحا تاما .

فنرى الجاحظ يصف ايضا كتاب الدواوين والمكدين واللصوص وغيرهم من اهل الطبقات الاجتماعية ، وصفا يبعث على الضحك في اغلب الاحوال ، والى جانب ذلك يطرق باب الحب والعشق والامور الجنسية في كتاب المفاخرات بين الجواري والغلمان وغيره مما لا يمكنني ان اتكلم فيه لسخفه وقلة حياء المؤلف ، ويطرقه ايضا في كتاب القيان الذي أعده تحفة او تحيفة من تحف الادب العربي ، فيصف فيه بدقة رائعة واسلوب عجيب العشق والدور الذي تقوم به الجواري المغنيات في بعض الاوساط .

ولما الصنف الثالث فيتبع فيه الجاحظ بعض التقاليد الادبيه الموروثة من الادب الفارسي ، فيتضمن خاصة رسائل

شتى يحلل فيها المؤلف فضائل وعيوبا كالكرم والعدل والحسد والغضب والتنبل وغير ذلك ، فاشيركم في هذا الصدد الى قراءة الرسائل التي نشرها كراوس والحاجري فهى غير مبتكرة في المعنى الا ان أسلوب كاتبها رائع بديع ذو أصالة لا تنكر . »

ولقد اطلت الكلام في آثار الجاحظ ولم اذكر اسلوبه الا عرضا مع ان شهرته بنيت عليه منذ قرون عديدة .

فان الدور الذي قام به في تطور الفكر الاسلامي غير طفيف ، والتأثير الذي أثره في تكون الثقافة العربية غير ضعيف ؛ فان عنينا باسلوبه راينا انه ليس اول الناثرين باللغة العربية ، وان تصفحنا كتاب الفهرست لابن النديم شاهدنا ان كثيرا من الادباء قد سبقوه الى استعمال النثر ، منهم ابن المقفع وعبد الحميد وسهل بن هارون وغيرهم ممن وضع أسس النثر العربي المرسل ؛ ولكن الجاحظ جاء باسلوب جديد فبلغ الغاية في الجزالة والنهاية في البلاغة — واستعمل هذه الكلمة بمعناها الاصلي اي البلوغ والنفاذ الى القلوب والاذهان — ؛ فلم يجهل اهل السلطان هذه الفضيلة حتى استخدموا نثر الجاحظ لدعايتهم ، معتقدين ان مثل هذا النثر اشد وقعا من الشعر ؛ ثم لم يبخس النقاد حقه اذ ضربوا به المثل في اتقان اللفظ واجادة المعنى .

فتتميز طريقة الجاحظ بعدم النظام وكثرة الاستطراد ؛ فمثل هذا المنهاج قد يستكره اليوم الا ان صاحبنا معذور بل محمود لانه اديب غايته امتاع الناس لا ملالهم ، فاسلوبه خفيف عذب تنسجم الجمل في نثره كما تنسجم الابيات في نظم الشعراء ؛ وكثيرا ما يكرر فكرته للتدقيق والافهام فيعبر عما خطر على باله مرتين متواليتين متتابعتين ، ويختار لذلك عبارات موزونة غير مقفاة في اغلب الاحوال ؛ فتدل هذه الطريقه على ان الناثرين حاولوا ان يتخلصوا من قيود الشعر دون ان يتركوا جانبا جميع العناصر التي يتحلى بها النظم ؛

فتستوجب تلك المحاولة نبوغا فائقا ومواهب شاذة لتكلل بالنجاح ؛ فكتب النجاح للجاحظ ولبعض من قفا اثره ـ كابي حيان التوحيدي ـ ولكن هذا النوع من النثر الفني كان اصعب من ان يستعمله جميع الكتاب : فسرعان ما عادوا الى نثر بالشعر أشبه وباذواق العرب امثل ، اعني السجع الذي اصبح يغمر جميع حقول الادب ابتداء من القرن الرابع .

فاسلوب الجاحظ نسيج وحده لا يمكن ان يغتر فيه القارىء الخبير ويشتبه عليه وجه الصحة ؛ والعجب ان بعض المزيفين الصبيانيين عزوا الى الجاحظ كتبا ورسائل لا يجوز البتة ان تكون خرجت من قلمه ؛ فلقد تلقيت اخيرا فلما مصغرا من رسالة الآمل والمأمول التي يذكرها ابن النديم وغيره منسوبة الى الجاحظ : فلم اقرأ منها صفحة كاملة حتى ايقنت بانها منحولة ؛ فتابعت مطالعتي واذا بجملة معناها : انا بريء من الاعتزال ؛ فلم افتقر الى هذا الدليل القاطع لكي اتبين انتحال الرسالة .

ولا اتمالك من قراءة صفحة واحدة منتخبة من مقدمة التربيع والتدوير وهي ابدع صفحة قراتها في الادب العربي القديم واعجبها :

كان احمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعي انه مفرط الطول : وكان مربعا وتحسبه لسعه جفرته واستفاضة خاصرته مدورا ؛ وكان جعد الاطراف قصير الاصابع وهو في ذلك يدعي السباطة والرشاقة وانه عتيق الوجه اخمص البطن معتدل القامة تام العظم ، وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ وهو مع قصر عظم ساقه يدعي انه طويل الباد رفيع العماد عادي القامة عظيم الهامة ، قد اعطي البسطة في الجسم والسعة في العلم ؛ وكان كبير السن متقادم الميلاد ، وهو يدعي انه معتدل الشباب حديث الميلاد . الخ

فهذا الكتاب الذي رايت ان اتكلم فيه عند ختام محاضرتي هو تحفة لم يقدرها المتقدمون ولا المتاخرون حق التقدير .

فلعل من قرأ جميع آثار الجاحظ استعجب من كثرة الفقرات والنصوص التي يذكر فيها الجد والهزل والبكاء والضحك . غير ان مثل هذا الالحاح الذي نعده الآن غير محتاج اليه ، كان حينذاك امرا ضروريا لان الهزل بصفة عامة مكروه عند العرب لعدم ملاءمته بالحلم والوقار ؛ فحاول الجاحظ ان يبرره قائلا ان الجد في غير موضعه مذموم كما ان الهزل في موضعه محمود ، فيذهب الى ان الجد الدائم متعب ممل ويرى في الهزل راحة وفي المزاح جماما ــ واظن انه لم يقنع جميع المسلمين رغما عن الجهود التي بذلها لكي يفرض عليهم آراءه وخواطره ــ ومهما كان من امر فلا شك انه ذو تهكم ظريف لطيف ، لعله اظرف من ان يشعر به وألطف . فكتاب التربيع والتدوير تهكم مستمر تتخلله مسائل جادة ، ومثل التربيع مثل روايات Molière لاننا نضحك مما فيه من دقة الملاحظات ، ثم اننا ان تأملنا المسائل التي يطرحها المؤلف أجهشنا بالبكاء لعجزنا عن الجواب عليها وعدم اكترات العرب باهميتها وخطورتها . وذلك ان الجاحظ يسال احمد ابن عبد الوهاب هذا اسئلة عويصة تتعلق بالظواهر الطبيعية والتاريخ القديم واساطير ينقلها الرواة فتصير حقائق وغير ذلك من المعضلات التي كان من عاصر الجاحظ ــ ولسوء الحظ من خلف زمانه ــ لا يتفكرون فيها مكتفين راضين بالحلول التقليدية الجامدة .

فلو كان الجاحظ لم يخلف لنا الا هذا الكتيب لاستحق امتنان العرب واعجاب المستعربين ، ولكنه بعد ان طرح المسائل على بساط البحث وحث على حل المشاكل حلا عقليا مقبولا ما دام يوافق الشريعة الاسلامية ولا يخالف معطيات القرآن والسنة ، لم يقل لنا ما هي الحلول التي يقترحها والاجوبة التي يؤثرها

فنفهم ان مراده الفات انظار العرب الى عناصر الثقافة فقط واغراؤهم على اعادة النظر الى ما يجوز ان يحفظ وما ينبغي ان يترك .

فذلك سيداتي وسادتي ما كان من غرضي ان اقول في الجاحظ وأصالته ؛ فهو حقا معلم العقل والادب ولكن معلما بلا تلاميذ ، فذهبت جهوده أدراج الرياح ويجدر بنا ان نتمثل بمثل مقتبس من انجيل لوقا وهو انه ليس احد نبيا في وطنه.
والسلام عليكم ورحمة الله
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

مطبعة أكدال - الرباط

أبو سلوم المعتزلي